وزدني لطرف البين منك بنعمة ووَرِّثْ (١ اذا ما متُّ طرفي حمامها
يكونُ لأولادي جمالاً وزينةً ويحزن زيني زينةً أن يرانيا (٢

وروى البحتري في حماسته (راجع طبعتنا ص ١٢٤) لرجل الكنديّ في نوح وسفينته فقال في تصرُّف الأيام :

وأمينَ نوحاً بعد ما بلغتْ به أُنُقَ البلاد سفينةٌ لم تزرَقِ

ويضربون المثل في نوح بطول العمر وروروا لزوبعة (ديوانه ص ١٢٨) :

قلتُ لو عُمِّرتُ سنَّ الجِعْلِ او عُمْرَ نُوحٍ زمنَ القِطَحْلِ (٣
والصخرُ مثلٌ كطين الوَحْلِ صرتُ رهين هَرَمٍ او قَتْلِ

اوهام العقليين في الوحي الالهي

للاب شرل ايلا اليسوعي (تابع)

٤ بدعة السوسينين

هُمُ العقليون المتوسطون على ما سبق الينا الكلام (ص ١٧٧) ويُطلق عليهم ايضاً اسم الوحّدين (Unitariens) واعداء الثالوث (Antitrinitaires) لانهم يعتقدون انَّ الذات الالهيَّة لا تقوم الّا باقنوم واحد

وكان منشئا هذه البدعة ليليو سوسين (Lelio Socin) ونسيبهُ فوست (Fauste) ايطاليَّين ابصرا النور في مدينة سينّا (Sienne)

امّا الاوّل فبعد ان تاه اربع سنوات في انحاء اوربا ومكث برهةً من دهره

(١ في الاصل : وأَرِّث

(٢ وللشاعر بعد هذا ابيات ذكر فيها قصّةَ يروجها العرب جرت على زعمهم بين الديك والغراب . يقولون انَّ الديك نادم الغراب وشرب الخمر ولم يعطِ الخمّار حقَّهُ فرهنَ الغرابُ الديكَ على حجّة ان يذهب ويأتي بالثمن فلمّا ذهب غاص بالديك وسخر به ولم يرجع فبقي الديك محبوساً

٣ الجِعْل ولد الضب ويروى : عُمْر الجعل . والقِطَحْل السيل والطوفان . (راجع الصفحة ٢٨٨)

في زوريخ من اعمال سويسرة أمّ نحو سنة ١٥٥٧ بلاد پولونية وكان ملكها سيجيسموند اغسطوس الاوّل مولعاً بالبدع فاقتبلهُ في بلاطهِ ورحّب بهِ. وكان ليليو من قبل لا يجسر على المجاهرة بتعاليمه خوفاً من أولي الامور ولاسيما زعماء الاصلاح البروتستني. فانّ هؤلاء بعد ان وضعوا حرّيّة البحث الديني ونادوا بها على رؤوس الملأ لم يعملوا بها بل اضطهدوا الذين ناهضوهم في آرائهم ان صحيحةً وان باطلةً واهنة. من ذلك انّ الكلڤينيين في جنيڤا حكموا بالاعدام حرقاً على ميشيل سروه (Michel Servet) لكفره بألوهية السيد المسيح. وكان وقتئذٍ ليليو سوسين في سويسرة فرهبَ ان يلحقهُ ما ألمَّ بسروه فكتم اضاليلهُ ما استطاع لا يوقف عليها الّا النزر القليل من مُخلصيهِ لا بل أجهر ارثوذكسيّتهُ البروتستنتيّة. على انّهُ ما فاز بنعماء سيجيسموند الملك وحسن التفاتهِ الّا وعاق ينشر بدعتهُ في پولونية. وقد اقامَ فيها شطرًا من الزمن ثم بارحها عائدًا الى وطنهِ ايطالية قصد الاستيلاء على إرث ابيهِ وكان سيجيسموند اصحبهُ بمكاتيب توصية من اجل هذا الغرض ومن ايطالية رجع الى سويسرة حيث توفي عام ١٥٦٢

وكان اذ ذاك فوست سوسين في مدينة قاورنسة تشغلهُ في بلاط دوق توسكانة الكبير الملاهي والمناصب عن التبخر في معتقدات بدعة نسيبهِ وما قام ينتصر لها الّا سنة ١٥٧٤ فقصد المانية ثمّ ڤويسرة حيث عكف على درس اللاهوت حولًا ثلاثة خافياً جهده مزاعمهُ الشاردة. وفي اوائل سنة ١٥٧٨ دخل البلاد الترنسلڤانيّة ولبث فيها عاماً ينشر تعاليم البدعة. وفي السنة التالية جاء الى پولونية فوجد فيها كثيرين من انصار مذهب نسيبهِ المتوفّى الّا انّهم كانوا متفرّقين شيعاً لا تجمعهم كلمة ولا تحكم بينهم سلطة فتوفّق بذلاقة لسانهِ وخلابةِ الى رأب صدعهم وضمّهم الى كنيسة واحدة عرفها رسميًّا أولو الامور هناك ودُعيت بالكنيسة السوسنيّة

وقد حُفظت تعاليم السوسنيّة مُثبتةً في مجموعةٍ بثمانية مجلّدات ضخمة عنوانها « مكتبة الاخوة البولونيين » (١ طُبعت في امستردام سنة ١٦٥٦ وفي المجلّدين

---

١) اسمها : Bibliotheca Fratrum Polonorum, 8 vol. in f°, *Irenopoli*, 1656

الاولين منها تآليف فوست سوسين تتقدمها ترجمته. امّا ليليو فلم يُنشَر له شيء في المكتبة المذكورة

ومن تآليف الاخوة البولونيين يتّضح انّ اساس المذهب السوسيني هو حرّيّة البحث الديني. فانهم لا يرفضون الكتاب العزيز لا بل يقرّون بكونهِ مُنزّلاً غير انّهم يحتمون باستحالة كل ما فاق ادراك العقل الفطري فاذا عثروا في النصوص الالهيّة على قضيّةٍ خرجت عن دائرة المدركات الطبيعيّة تأوّلوها على الطريقة الرمزيّة حتى يأتي معناها طبق مبدإهم. فلله درُّهم من مؤمنين كافرين وخاضعين متمرّدين لا يخضعون لكلام الله بل يُخضعونهُ لفلسفتهم الضالّة. وعلى هذا توصّلوا الى جحد الثالوث ولاهوت المسيح وحقيقة تكفيرهِ عن خطايانا اذ حمل عاهاتنا وقدّم ذاتهُ للآب على الصليب ذبيحةً عنا

ويا ليتهم نبذوا الكتاب المقدس ظهريًّا ولم يعمدوا الى تفاسيرهم الرمزيّة التي حدت بهم الى ان عزَوا الى الروح القدس الوحي اقاويلَ لم تكن لتخطر ببال حتى لصبيان المكاتب واليك مثلاً على سخافة تأويلهم :

جاء في مقدّمة الانجيل الرابع : «في البدء كان الكلمة» فيفسّر فوست سوسين(١ هذه الفقرة على ما يلي : « في البدء اي في مستهلّ التاريخ الانجيلي (!!!) » كأنّ كل ما جاء في كتابات الرسول الحبيب صريحًا جليًّا عن الوهية السيّد المسيح ووجوده الازلي امسى نسيًا منسيًّا او كلاماً فارغاً من المعنى. وكذلك قول الانجيلي عنهِ « كُلُّ به (اي بالكلمة) كَوْنَ » معناهُ عند فوست سوسين انّ يسوع المسيح صنع كلّ الاشياء المتعلّقة بتأسيس النصرانيّة (!!!) فحصرَ وقيّدَ المفتر كفرًا والحادًا ما اطاق صاحب النصّ المقدّس في الفقرة الانجيليّة عينها اذ اردفَ قائلاً : « وبغيره (اي بغير الكلمة) لم يُكوَّن شيء مما كُوِّن »

ولم تُعثر بدعة السوسنيين في البلاد البولونيّة فانّ الملك سيجيسموند الثالث لم يلبث ان نكّس اعلامها فتلاشت واضمحلّت في مملكتهِ تماماً

امّا في يومنا هذا فلم يبق من تبّاعها الّا العدد القليل وهم متشتّتون في انكلترة

(١ F. Socin, *Explicatio primi capitis Joannis*

والولايات المتحدة وليس لهم جماعة خليقة بالذكر الّا واحدة وهي في بلاد ترنسلفانية (١

٥ العقليون المتطرفون

كانت اوّل حركتهم في انكلترة وربّما أُطلق عليهم اسم الإلهيين (déistes) لأنّ الاوّلين منهم زعموا انّ الانسان بما يدلّهُ عليهِ العقل الغريزي من معرفة الخالق وعلاقات المخلوقات العاقلة به غنيٌّ عن الوحي ايًّا كان معدنهُ

وممّا لا سبيل الى الريب فيهِ هو تأثير الاصلاح الموهوم في اضاليلهم ولكن على خلاف تأثيرهِ في هرطقة السوسنيين . فقد مرَّ بك ان هؤلاء لم يعالجوا الاسفار الإلهيّة بتفاسيرهم الصبيانيّة الّا عملًا بحرّيّة البحث البروتستنتيّة . امّا الإلهيّون فقد كان من فعل حرّيّة البحث فيهم ان نفروا من الكتب المنزلة وأعرضوا عنها لا يُقدّرون لها قدرًا ولا يعيرونها سمعًا . وذلك انّ حرّيّة البحث احدثت فوضى الآراء في تفسير الآيات الشريفة فتسرّب الشكّ الى الانفس في حقيقة معنى كلام الله حتى يئس البعض من الوقوف عليهِ واستغنوا عنهُ بنورهم الطبيعي وعن الديانة الوضعيّة الموحاة بالديانة الطبيعيّة الفلسفيّة وهي مذهب الالهيين

والحقّ يُقال انّ الشيع البروتستنتية العظمى لم تعتم ان تشعّبت فروعًا اكثر من ان تُحصى وكنتَ ترى من فرعٍ الى غيره بل من نشءٍ الى اخرى في الفرع الواحد اختلافات وآراء متناقضة يبنيها جميعًا اصحابُها على النصوص الكريمة ممّا لا يتالك امامهُ من الشكّ ذوو الايمان الثابت المتين لولا اعتقادهم انّ الله انّما خوّل سلطان التفسير الكنيسة الحقيقيّة وحدها . فكيف بذوي الايمان الضئيل في موقف كهذا وانت تعلم انّ الاوّلين من جماعة الانكليكان قد تقلّبوا في المذاهب والنِحَل مع تقلّبات الريح السياسية في بلادهم حتى اضحى ايمانهم المسيحي اسمًا بلا مُسمّى مبنيًّا على ارادة المتعصبين لا على كلام الله . وُلِدوا بالعهاد في حضن الكنيسة الكاثوليكيّة فانفصلوا عنها خوفًا من تهديدات هنريكوس الثامن ثمّ عادوا اليها في ايام الملكة ماري واخيرًا جنحوا الى الارطقة وثبتوا فيها في عهد اليصابات

---

١) راجع كتاب فيكورو المذكور آنفًا (ص ٤٩١)

وقد سمت المتصبة هذه في توحيد المعتقد بين شعبها اذ اجبرتهم تحت العقوبات الطائلة على الاقرار بالقضايا الدينية التسع والثلاثين (39 articles) التي وضعها المجمع الانكليكاني عام ١٥٦٣ غير انَّ الاصلاح الانكليزي لم يكن اوفر حظًّا من اللوتيري ولم يُصب من الوحدة اكثر منهُ فما لبثت الكنيسة الانكليكانيَّة ان تشعَّبت وتزَّقت فنشأت فيها البدع وعلت ضوضاء المخاصمات وتعدَّدت الآراء وتضاربت. فحارت عقول المتبصِّرين وجعل بعضهم يتساءلون: تُرى أليس الدينُ بمعزلٍ عن المنازعات والمشاحنات؟ أليست الحقيقة الالهيَّة ثابتةً راسخةً لا تغيِّرها الاضطرابات السياسية ولا الأهواء البشريَّة؟ فكيف تكون آياتُ الكتاب كلامهُ تعالى ومورِدًا صافيًا للعطاش الى الحقيقة الدينيَّة وقد استقى منهُ المتحاورون الحارَّ والمرَّ والحقَّ والباطل؟ وان قيل: لم يفقهوا لهُ معنى فما الفائدة اذًا منهُ للعباد او لا يكون وحيُ الله بهِ عبثًا؟

ولا يندّ عن علم القارئ اللبيب أنَّ حلَّ هذه العقدة سهلٌ لدينا نحن الكاثوليك فقد قلنا (ص ١٢٤–١٢٧) انَّ الكتاب العزيز لا يكفي ذاتهُ لذاته بل لا بدَّ من سلطة معلِّمة معصومة تكشف النقاب عن غوامض معناه. والَّا فلا مناص من الشكّ فيهِ والتكُّع في غياهب مذهب الالهيين والقول معهم: عبثًا يُستطلعُ الوحي ولا سبيل الى تناول مفهومهِ فهو إذن غير ضروري بل ليس فيهِ من فائدة للبشر

وهو الرأي الذي بسطهُ لاوَّل مرَّة رأسُ الإلهيين اللورد هربرت شربوري (Herbert Cherbury + ١٦٤٨) في كتاب لهُ عنوانهُ: «في الحقيقة من حيث تتميَّز عن الوحي والقريب الى الصحَّة والممكن والباطل» (١ وقد دُعي شربوري «لورد ما وراء الطبيعة» (Metaphysick Lord) لأنَّهُ توخَّى ابدال الديانة من الفلسفة ولم يقصد بهذا تقويض الدين لا بل صرَّح بضرورتهِ. كذلك لم يقرَّ الكتاب المقدَّس بالخطإ بل اجلَّهُ واطرأهُ انما ضلَّ عن سواء السبيل اذ اراد حصر الدين في قضايا فلسفية خمس وهي: وجود الله ووجوب التعبُّد لهُ وضرورة الفضيلة والتقوى ولزوم التوبة عن المآثم والاعتقاد بثواب الآخرة وعقابها. وقد زاد شربوري

(١ De veritate prout distinguitur a revelatione, a verisimili a possibili et falso.

الطين بلّة حيث زعم ان هذه الحقائق يتوصّلُ البشر دون صعوبة الى معرفتها والعمل بها بمجرّد تفلسفهم مستغنين عن الوحي وعن النصوص المُنزلة

واوّل شاهدٍ على فساد هذا الرأي المخاصمات التي نشبت بين الالهيين الذين جاءوا بعد شربوري والاضاليل الفلسفيّة التي جنحوا اليها فانّهم ذهبوا حتى في القضايا الخمس الموما اليها مذاهبَ شتّى ولم تضمّهم الّا كلمة واحدة وهي الكفر بالوحي. امّا اباطيلهم واراجيفهم فحدّث عنها ولا حرج. فمنهم الدهريّون والخلوليّون ومنهم الماديّون واللاأدريون وليس من خرافةٍ إلّا تجدها مثبتةً في مصنّفاتهم

ذاك توما هوبس (Thomas Hobbes + ١٦٧٩) تطرّق من مذهب الالهيّة الى الكفر اصرحه واشنعه كانَ لاأدريًا وماديًا وحذف من الوسط كل ديانةٍ حتى الطبيعيّة اذ اجهرَ انّها كلّها منوطة برأي الامير وإرادته فان أمرَ بالتجديف على اسم الله أضحى التجديف فضلًا وصلاحاً

وكذا شارل بلونت (Blount) الذي انتحر عام ١٦٩٣ وقد اضاف الى الالحاد الوقاحة والسفاهة وهزأ بالوحي والمعجزات فكان في انكلترة خير سلف لفولتير في فرنسة

وعلى الشاكلة عينها الارلنديّ جوهن تولَند (John Toland ١٧٢١) وقد تقلّب في انجيل ولا تقلّب الحرباء. في الالوان فهو يوماً كاثوليكي وآخر بروتستنتي كبيتوري (presbytérien) وتارةً الهيٌّ واخرى حاولي الى ان غدا لا يدين بدين البتّة

ولو اردنا الاتيان على ذكرِ كل الذين اشتهروا بالكفر من الالهيين في انكلترة اطال بنا الشرح ومللَ القارئ وفيما لخّصناهُ كفايةٌ لاقامة الحجّة على بطلان مزاعمهم ذهبوا انّ الديانة الطبيعيّة تسدّ مسدّ الوضعيّة الموحاة وقد افادتنا اخبارهم انهم لم يشيدوا مكانها الّا الكفر والضلال. وقد اقام مونتسكيو حَوْلَيْن في انكلترة فكتب عام ١٧٢٩ ما يلي (١): « قد اضمحلّ الدين في انكلترة فليس الّا اربعة او خمسة من المبعوثات يحضرون القداس ويسمعون الوعظ وان فتح احدٌ حديث الديانة هزأ به الجميع »

---

١) ذكرهُ تان: (Taine, *Ancien Régime*, p. 363)

والك في هذا القول وان كان محمولاً على المبالغة دليلٌ صريح على ضرورة الوحي كما يسهل على الانسان معرفة واجباته الدينيَّة وترسخ قدمهُ في عادتها

ومن انكلترة جاز مذهب الاهليَّة الى فرنسة حَمَلَهُ اليها ڤولتير (+ ١٧٧٨) فانَّهُ كان هرب الى انكلترة خوفاً من السجن واقام هناك زمناً يتشرَّب مبادئ العقليين حتى امتزجت به امتزاج الماء بالراح . فلمَّا ان عاد الى فرنسة وقف حياته كلها للكفر ومقاومة الدين القويم واذ ضاق ذرعهُ عن البينات الراهنة عمد الى النفاق والتلفيق والبذاءة فهزأ بالنصرانيَّة وبقي عليها ولم يخجل من تزوير الاسفار المُنزلة حاذفاً منها او زائداً عليها حسبما تقتضيهِ اغراضه السافلة

ومن معاصري ڤولتير وزملائهِ وان بعيداً عن سفاهته جان جاك روسو (+١٧٧٨) زعم انَّ كل ما يفوق الطبيعة مستحيلٌ لأنَّهُ لم يرَهُ قطّ . وهو ممَّن لم يقرّ لهم في الرأي قرار فطوراً كان يطري الانجيل ويشدو بتديح المسيح وطوراً كان يرفض المعجزات والنبوات والوحي اصلاً

ومن اعوان ڤولتير ديدرو (Diderot + ١٧٨٤) وكان متعصباً في مذهب المادية والدهريَّة متمسكاً بهما متحمساً لهما ولا تحمُّس العابد الصادق للدين الحق . ودالمبرت (d'Alembert ١٧٥١) وهو من اللادريين والمادي هلفيسيوس (Helvétius + ١٧٧١) الخ

ومن العقليين الذين عاشوا في فرنسة في القرن المنصرم قومٌ دُعوا بالفلاسفة المتحسنين (éclectiques) وقد اشتهر بينهم كوزين (Cousin + ١٨٦٧) وجول سيمون (J. Simon + ١٨٩٦) وجانه (P. Janet + ١٨٩٩) وانَّ هؤلاء مع اقرارهم بفضل النصرانيَّة على الانسانيَّة خصوصاً بما سنَّت لها من الشرائع الادبية رفضوا الوحي بتاتاً مدَّعين انَّ الديانة الطبيعيَّة تكفي الانسان معرفةً وعبادة وتقيً واما الاسرار والمعجزات فهي لديهم من المحالات

وفي مقدَّمة العقليين الالمانيين وُلف (Wolf + ١٧٥٤) هذا ادَّعى الفلسفة وزعم انَّها امَّا تغني عن الوحي اذا كان منطوقهُ من المدركات الطبيعيَّة واما تُناقضهُ اذا تضمَّن اسراراً لم يحكِ عنها العقل البشري

وقد كانت البلاد الالمانيَّة مهد العقليين الذي دُعوا كتابيين (rationalistes

(bibliques وهؤلاء لم يكتفوا بالقول انَّ الاسفار الشريفة كتبٌ بشريَّة محضة بل تزخوا ابطال ما جاء فيها من الحوادث الفائقة الطبيعة وطلباً لذلك كانوا تارةً ينفون نسبتها الى مؤلفيها الاقدمين وتارةً يرفضون تاريخيتها او يعالجون بتفاسيرهم الرمزية ما عثروا عليه فيها من المعجزات

وقد برز بينهم لسينغ (Lessing + ١٧٨١) في الكفر عموماً وفي تحامله خصوصاً على السيد المسيح الذي لم يخجل من اتهامه بالمكر والخداع

وتعاقبت في القرن التاسع عشر مذاهب العقليين الكتابيين تكذّب بعضها بعضاً لا تتفق الَّا على انكار ما يفوق الطبيعة والهام الاسفار المقدَّسة

اما في يومنا هذا فهي الفوضى الفلسفيَّة ساندة على اعداء الوحي فاذا ما استثنيت البعض منهم الذين يعتقدون روحانية النفس ووجود الخالق وضرورة الديانة ولو طبيعيَّةً وجدتَ الباقين متفرّدين كلًّا بمذهبه فمنهم الماديّ النشوئي الذي يكفر بالله الواحد ويؤلّه مكانهُ الهيولى ومنهم الوضعيّ الذي يجزم بعجز العقل ليس فقط عن ادراك ما فاق الطبيعة بل عن كل معرفة تتجاوز العوارض الظاهرة

هذا ما آلت اليه فلسفة اعداء الوحي في ايّامنا فشتَّان ما بين الثريا والثرى وشتَّان ما بين السلف والخلف الَّا انَّ هذا الثمر من تلك الشجرة فمن ثمارهم تعرفونهم وهي اوَّل حجَّة نقيمها على غواية الكافرين بكلام الله . ارادوا الاستغناء عنهُ بالعقل المجرَّد فتكفّروا وعقولهم في اوهن الاضاليل واقبحها . حاولوا تذليل الوحي طلباً الى تعزيز العقل فما فازوا الَّا بتذليل فلسفتهم المتعاقلة . خرَّبوا فما شادوا . اعرضوا عن مناهل الحق الصافية فوردوا مستنقعات الكذب والافك فصدق فيهم قولهُ تعالى في شعبهِ المتمرّد : « انذهلي ايتها السماوات من هذا وانتفضي جدًّا يقول الرب . فانَّ شعبي صنع شرَّين تركوني انا ينبوع المياه الحيَّة واحتفروا لهم آباراً آباراً مشقَّقةً لا تُمسك الماء » (ارميا ٢ : ١٢ — ١٣)

البقية لعدد آخر